N025 1964 March

الشعر العربي وفن التصوير

نزار سليم - من جماعة بغداد للفن الحديث

في باب التصوير من [صحيح البخاري] عن مسلم انه قال : كنا مع مسروق في دار يسار بن نمير ، فرأى في صفته تماثيل فقال : سمعت عبدالله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إنّ من أشدّ الناس عذاباً عندالله يوم القيامة المصورون). وفي رواية أخرى يذكر عن أسامة بن زيد انه قال : دخلت مع رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، الكعبة فرأى فيها صوراً ، فأمرني أن آتيه في دلو ماء ، فجعل يبل الثوب ويضرب به الصور ، ويقول : (قاتل الله قوماً يصورون ما لايخلقون) .

ولعل أقسى ما يروى رواية الامام البخاري في باب بيع التصاوير من كتاب البيوع عن سعيد بن ابي الحسن أنه قال : (كنت عند ابن عباس - رضي الله عنهما - إذ أتاه رجل فقال : (يا أبا عباس ! اني انسان إنما معيشتي من صنعة يدي ، واني أصنع هذه التصاوير .) فقال ابن عباس : لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صوّر صورة فان الله معذّبه حتى ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ فيها أبداً ، فربا الرجل ربوة شديدة ، واصفر وجهه ، فقال : ويحك أن أبيت الا أن تصنع فعليك بهذا الشجر ، كل شيء ليس فيه روح . . .

* * *

فلا عجب بعد هذا أن يجد الفنان العربي في الزخرفة المجردة مجالاً ينفس فيه عن مشاعره وأحاسيسه الحبيسة ، فيبدع في ذلك كل الابداع ويشطح في خياله الخلاق المترن المهموم في تناسق هندسي متشابك ومتساوق أشبه ما يكون بالموسيقى وبمحاولات الفنانين المحدثين . غير أن الفرق بين الفنان العربي والفنان الاوربي الحديث هو ان الأول قد اندفع بوازع الدين والخيال الى عالم التجريد ليشبع احساسه الفني الجائع الى التعبير ، أما الثاني فقد انطلق من جهة معاكسة الى ذلك العالم ، انطلق الى عالم التجريد بعد تجربة قاسيه مريرة وهي تجربة الحياة ذاتها بكل ما فيها من مادة وفلسفة وعلم بعد ان اصابته التخمة من الواقع والمنظور السطحي فأراد أن يسبر عوالم أخرى هي عوالم الخيال والنفس والتجريد .

وإذاً فقد كان الدين من العوامل الأكيدة في سمو الفنان العربي عن الواقع وفي سبره أغوار التجريد الفلسفي ، يضاف الى هذا العامل نفسية الفنان ذاتها والمحيط المشرق الواسع بكل ما فيه من حرمان ومن ظلال وأضواء وامتدادات وتقاطع أشبه ما يكون بالمحيط الاسباني الذي أوحى أول ما أوحى للفنان (بيكاسو) عند رجوعه الأول من فرنسا الى اسبانيا بالفن التكعيبي .

ولكن ما يذهل في الأمر حقاً ان الفنان العربي رغم القيود المفروضة عليه ورغم ما أصيب به من محن وظروف قاسية وغزو ودمار ، ورغم انه قد خلق الفن الزخرفي المعروف فقد استطاع أن ينتج بين حين وآخر صوراً ورسوم ذكرتها لنا أمهات الكتب من عربية وأجنبية . فقد صور على الستور والثياب وعلى السلاح والنقود وزخرف الشارات والبنود ، بل انه صنع التماثيل والدمى المتحركة والمصوتة وتماثيل الحلوى واللعب . واشتهر منهم مصورون لهم مدارسهم الخاصة . حتى أن الخطيب البغدادي ذكر في مقدمة (تأريخ مدينة السلام) شارعاً بها كان يسمى بشارع (المصور) . وأورد الصدفي في (جلوة المذاكرة ، وخلوة المحاضرة) قول بعضهم في رسام :

قلت لرسامكمُ بك الفؤاد مغرمُ
قال متى اذيبه فقلت حين ترسمُ

وليس أدل على براعة الفنان العربي في التصوير من القصة التي يرويها ابن حجة في (ثمرات الأوراق) عن الجاحظ عن فتى من أصحاب الحديث إذ قال : دخلت ديراً في بعض المنازل لما ذكر لي ان به راهباً حسن المعرفة بالناس وايامهم ، فصرت له لأسمع كلامه ، فوجدته في حجرة معتزلة بالدير ، وهو على أحسن هيئة في زي المسلمين ، فكلمته فوجدت عنده من المعرفة أكثر مما وصفوا ، فسألت عن سبب اسلامه ، فحدثني ان جارية من بنات الروم كانت في الدير نصرانية كثيرة المال بارعة الجمال عديمة الشكل والمثال ، فأحبت غلاماً مسلماً خياطاً وكانت تبذل له مالها ونفسها والغلام يعرض عن ذلك ولا يلتفت اليها ، وامتنع عن المرور بالدير ، فلما اعيتها الحيلة فيه طلبت رجلاً ماهراً في التصوير واعطته مائة دينار على أن يصور صورة الغلام في دائرة على شكله وهيئته ، ففعل المصور ، فلم تخطيء الصورة شيئاً منه غير النطق ، واتى بها الى الجارية ، فلما أبصرتها أغمي عليها ، فلما أفاقت أعطت المصور مائة دينار أخرى ، وأخرج الراهب لي الصورة ، فرأيتها ، فكاد ان يزل عقلي . فلما خلت الجارية بالصورة رفعتها الى حائط حجرتها وما زالت كل يوم تأتي الصورة وتقبلها ثم تجلس بين يديها وتبكي ، فما زالت على تلك الحال شهراً ، فمرض الغلام ومات ، فعملت الجارية مأتماً وعزاء سار ذكره في الآفاق ، وصارت مثلاً بين الناس، ثم رجعت الى الصورة وصارت تلثمها وتقبلها الى ان أمست ، فماتت الى جانبها ، فلما اصبحنا دخلنا عليها لنأخذ من خاطرها فوجدناها ميتة ، ويدها ممدة الى الحائط نحو الصورة ، وقد كتبت عليها هذه الأبيات :

ياموت حسبك نفسي بعد سيدها خذها اليك فقد أودت بما فيها
اسلمت وجهي الى الرحمن مسلمة ومتّ موت حبيب كان يعصيها

لعلها في جنان الخلد يجمعها بمن تحب غداً في البعث باريها .

قال الراهب : فشاع الخبر ، وحملها المسلمون ودفنت الى جانب قبر الغلام!

ومن أشهر ما يذكر عن براعة العرب فى التصوير مايرويه المقريزي في خططه عن ابن عزيز ، أحد مصوري العصر الفاطمي ، إذ استدعاه الوزير ابو محمد الحسن اليازوري المعروف بسيد الوزراء ، من العراق الى مصر ليجمعه بالقصير ، وكان من كبار المصورين ، حمله الاعجاب بصنعته أن ينشط فى أجرته وهو حقيق بذلك . واجتمع الاثنان بمجلس الوزير اليازوري ، فقال ابن عزيز : أنا أصور صورة إذ رآها الناظر ظن انها خارجة من الحائط ، فقال القصير : وأنا اصورها ، فاذا رآها الناظر ظن انها داخلة فى الحائط . فقالوا : هذا أعجب . فأمرهما الوزير أن يصنعا ما وعدا به ، فصورا صورة راقصتين في صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين ، هذه ترى كأنها داخلة فى الحائط ، وتلك ترى وكأنها خارجة من الحائط فصور القصير صورة راقصة بثياب بيضاء فى صورة حنية دهنها أسود ، كأنها داخلة فى صورة الحنية . وصور ابن عزيز راقصة بثياب حمر فى حنية صفراء وكانها بارزة من الحنية . فاستحسن اليازوري ذلك ، وخلع عليهما ، ووهبهما كثيراً من الذهب .

إن هذا يذكرنا بعصر النهضة الاوربية وبأمرائه وكنائسه وكرادلته الذين رعوا الفنانين وأغدقوا عليهم ليخلدوا لهم ذكرهم وذكر أحبائهم ، وليزينوا الكنائس بالتصاوير الدينية . وهنا نجد فرقاً آخر بين الفنان الاوربي والفنان العربي ان الفنان العربي لم يتخذ مواضيعه من الدين ولم تكن شخوصه شخوصاً معينة بالذات إلا ما ندر منها . وانه لمما يؤسف حقاً ان كل ماورد فى الروايات السابقة وغيرها لم يبقها الزمان ولا الأحداث والغزوات ، فراحت أكثرها ، ولم يبق منها إلا القليل ، وإلا هذه الأحاديث . فلعل صورة كالصورة التي عشقتها الجارية الرومية ، والتي دلتها طريق الاسلام واوردتها موارد الموت ، لتضاهي صورة الجيكوندا وتفوقها !

* * *

هذا وقد سجل لنا الشعراء العرب فى اشعارهم الكثير من فنون التصوير . فالشاعر العربي بطبيعته محب للجمال والسحر الحلال ، وهو منذ أن كان شاعراً كان السجل الضخم للوقائع والأحداث التأريخية لقبيلته ولأمته ، واللسان الناطق باسمها . . .

وأول ما يرد في شعر الشعراء العرب ذكر الراح وكؤوسه . فوصف ابو فراس المعارك التي خاضها مع قومه ، وشبه الخيل تحت النقع بالأشباح والرسوم الطافية فى الكؤوس ، إذ يقول :

أغمامُ ما يدريك من أفعالنا والخيل تحت النّقع كالاشباحِ
تطفو وترسب في الدماء كأنها صور الفوارس في كؤوس الراحِ!

وقال ابن نباتة المصري واصفاً النعيم الذي عاشه ومعاقرته الخمر حتى انه بات يرى نفسه صورة في قدح :

سَـقياً لأيامي التي سلفت ما بين ذاك النعيم والمرحِ
لا يُنزل الدهرُ عن يدي قدحاً كأنني صورة على قدحي!

فالشاعران هنا يشبهان حاليهما بالرسوم التي رآياها على الكؤوس . الأول يفخر بشجاعته وبطولته ، فيعطي صورة كاملة لا تعوزها الألوان بتشبيه في رائع يغدق على الواقع معنى فلسفياً عميقاً ، فالمعارك والدماء والخيل والأبطال . . كل هـــذا ، رسوم في أقداح : وما أشبه هذا بقولنا « عاصفة في فنجان » . . . ويصف الآخر انطباعاً نفسياً لحياة اللهو والملذة فيجد نفسه جزءاً لا يتجزأ من الكأس الذي يرتشفه .

وهل ننسى قول شيخ شعراء الشاربين (ابو نؤاس) في كأسه :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهما تدرّيها بالقسي الفوارس
فللراح ما زرّتْ عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

وقوله في قصيدة أخرى :

كأنها والخمر من فوقها كتائب في لجّة تغرق . .

أما أبو الفرج البغاء فانه إذ يشرب من قدحه الأزرق إنما يفعل ذلك انقاذاً للحسان المرسومات على القدح من الغرق :

ما زلت منـــه منادماً لُعَباً مذ أسكرتْها السقاةُ لم تُفِقِ
تختال قبل المزاج في أزرق الفجر وبعـــد المـــزاج في الشفق

تغرق في أبحر المدام فيستنقذها شربنا من الغرق

أما التصوير على السلاح والنقود والبنود والشارات ، فان البلدي في رحلته المسماة (بتاج المفرق في تحلية علماء المشرق) ينشد شعراً لبعض المفلسين منهم إذ رأى صورة الأسد المنقوشة على نقود الظاهر بيبرس والتي كان نقشها على رنكه وشعاره أيضاً :

لحا الله مصر وسكانها ... وفتّت أكبادهم بالحَسَدْ
متى يَرتجي مفلسٌ عندهم ... غِنىً وعلى كلّ فَلس أسد !

والمتنبي يذكر لنا في شعره الصور المرسومة على الخيام والتماثيل المتحركة التي رآها ، فهو يصف فازة ـ أي خيمة ـ لسيف الدولة قائلاً :

وأحسن من ماء الشبيبة كله ... حيا بارق في فازة أنا شائمه
عليها رياض لم تحكها سحابة ... وأغصان دوح لم تُغَنّ حمائمه
وفوق حواشي كل ثوب مَوجةٌ ... من الدرّ سمط لم يثقّبه ناظمه
ترى حيوان البر مصطحباً بها ... يحارب ضد ضده ويسالمه
إذا ضربته الريح ماج كأنه ... تجول مَذكيه وتَذأى ضراغمه

كما ارتجل المتنبي في مجلس بدر بن عمار ، وقد رأى تمثال جارية لها شعر ، تدور على لولب إحدى رجليها مرفوعة وفي يدها طاقية ريحان ، فاذا وقفت حذاء انسان شرب ثم ينقرها فتدور :

جارية ما لجسمها روح ... في القلب من حبها تباريح
في يدها طاقة تشير بها ... لكل طيب من طيبها ريح
سأشرب الكأس عن اشارتها ... ودمع عيني في الخدّ مسفوح

وعندما أمر بدر أن يرفع التمثال قال المتنبي :

وذات غدائر لاعيب فيها ... سوى أن ليس تصلح للعناق
امرتَ بأن تُشالَ ففارقتنا ... ولم تألم لحادثة الفراق

أما قصيدة البحتري الوصفية في بركة المتوكل فانها تذكر تمثال دلفين قابع فيها يؤنس السمك ويوازيه :

لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيها بأوساط مجنحة ... كالطير تنقضّ في جوّ خوافيها
لهن صحن رحيب في اسافلها ... اذا انحططن وبهو في اعاليها
صور الى صورة الدلفين يؤنسها ... منه انزواء بعينيه يوازيها

وشعر البحتري في الكثير مما يصف يدل على حساسية للمرئيات أشبه بحساسية الرسام ، كما انه يستثار بما يرى من أعمال الفن ، سواء أراها في اوجها أو في حطامها . فهو إذ يصف ايوان كسرى في المدائن (سلمان باك الحالية ، قرب بغداد) بعد تداعيه بحيث « لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس » ، يرى فيه صورة لمعركة بين الروم والفرس ، فيقول :

فاذا ما رأيت صورة أنطا ... كية ، ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنوشـ ... ـروان يزجي الصفوف تحت الدّرفس

(الدرفس هو الراية) فيذكر القارىء لوحات المعارك التي خلدت فيها كثير من الأمم ، فيما بعد ، تاريخها .

ألغاز شعرية

اعدها : مجيد دارا ـ كركوك

١ــ

ومرضعةٍ اولادها بعد ذبحهم ... لها لبن ما لذّ يوماً لشارب
وفي بطنها السكين والثدي رأسها ... واولادها مذخورةٌ للنوائب

/ / / / /

٢ــ

بصيرٌ بما يوحى اليه وما له ... لسان ولا قلب ولا هو سامع
كأنّ ضمير القلب باح بسرّه ... اليه اذا ما حركتْه الأصابع

/ / / / /

٣ــ

واسودَ عارٍ انحل البردُ جسمه ... ومازال من اوصافه الحرص والمنع
واعجبُ شيء كونه الدهرَ حارساً ... وليس له عين وليس له سمع

/ / / / /

٤ــ

ومسرعةٍ في سيرها طول دهرها ... تراها مدى الأيام تمشي ولا تتعب
وفي سيرها تقطع الأكلَ ساعة ... وتأكل طول المدى وهي لا تشرب
وما قطعتْ في السير خمسة اذرعٍ ... ولا ثلثَ ثُمن من ذراع ولا اقرب

/ / / / /

٥ــ

ومستديرٍ تروق العينَ بهجتُه ... كأنه ملك نجم الدجى فيه
حروفه أربعٌ قد رُكّبت فاذا ... ما قلت اولَ حرف تمّ باقيه

/ / / / /

٦ــ

وحمّالِ اثقالِ البريّة قادر ... ويعجز إن حمّلته نصفَ درهم
يسير بأيدي الناس شرقاً وغرباً ... فيسري بلا رِجْل له سير ارقم

/ / / / /

٧ــ

صفراءُ من غير علل ... مركوزةٌ مثل الأسل
كأنها عُمر الفتى ... والنار فيها كالأجل

/ / / / /

٨ــ

وزائرةٍ كأنّ بها حياءً ... فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المظارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها ... فتوسعه بأنواع السقام

الحل على الصفحة ٣٥